تقديم

ربى ريحاني عباسي، في نتاجها الأول، تبدو وكأنها كاتبة متمرسة لها باع طويل في شؤون الكتابة والنشر. تستخدم البساطة بحنكة مطيَّةً لنقل أفكارها العميقة التي تتحدّانا في صلب ما حفر في ضميرنا اللاواعي بشأن المرأة. تستقرأ المجتمع العربي، فلا توارب ولا تخفف من عمق معاناة المرأة العربية. تقول الحقيقة بصدق فتصدمنا بما يحدث في مجتمعاتنا. تخبرنا بتفاصيل صغيرة تهزُّنا.

تستعرض الكاتبة ملامح المرأة في عالم عربي غلبت عليه الذكورية والقبلية، فأضحت المرأة فيه حارسة شرف العائلة مع أن أحدًا لا يريد الاعتراف أن الرجل هو الذي يهتكه دون الخوف من حساب. ففي أسوأ الأحوال تُزوَّج الفتاة بمن سلبها أَعزَّ ما عندها، وما حافظت عليه لتهديه لمن أحبَّت.

تخبرنا الكاتبة، وهي امرأة تعي ما تقول، أن المرأة قادرة "على إهمال مشاعرها في سبيل الاهتمام بمشاعر الآخرين ..."، فتفتح بذلك آفاقَ عمقِ التضحية التي تفور بالغريزة من قلب المرأة ضنًّا بعائلتها. فنرى أن ما يظنه المجتمع ضعفًا هو في الحقيقة مكمن قوتها. أليست هي التي تهزُّ السرير بيمينها والعالم بيسارها؟ تقول لنا، بكلام آخر، إنه آن الأوان أن نعترف أن المرأة هي "أمُّ" الرجل.

تتحدث ربى عن العنف الذي تتعرض له المرأة، فتتخطى العنف الجسدي

لتستعرض العنف الذي يصيب المرأة على أشكاله. من ثمَّ تستعرض أسباب العنف الذي يسوقه الرجل في أسمى تعبير عن شعوره بعقدة النقص تجاه "الإناء الأضعف". وإذ أقول "الإناء الأضعف" فهذا ليس انتقاصًا منها، بل إشارة إلى استقواء الرجل عليها جسديًّا وإحساسيًّا. فهي المرهفة الحسّ، وصاحبة العاطفة الجيَّاشة التي يستغلها الرجل لأغراض تتمحور حول حاجاته هو فقط. يسهو الرجل أن هذه الحاجات تسدّ بالشكل الأفضل والأغنى حين يرفع من شأن امرأته ويبنيها فيغنيها.

من ثمَّ تتحوّل المؤلفة إلى استعراض مسألة المرأة العاملة التي تجبرها ظروف الحياة على الوقوع بين مطرقة الزوج وسندان المدير. عندها تبرز الشراكة غير المنصفة. فالرجل غير مستعد ليلوث يديه بصابون الجلي أو حفاض الرضيع، فتضطر الزوجة إلى القيام بكل هذه المسؤوليات بالإضافة إلى عملها خارج المنزل. فتدفع ثمن مجاراة العصر وتحقيق الذات استنزافًا لجسدها وفكرها، فلا يبقى منها ما يبهج الرجل ويسد حاجاته. عندها يجد الرجل ذاك عذرًا للبحث عن لذته خارج المنزل الزوجي.

تختم ربى الكتاب بتقديم القارئ إلى الحقائق المغيِّرة التي تبرز مكانة المرأة في المسيحية. وَيَا لها من مكانة! ففي المسيحية الحقَّة تتحقق الشراكة بين الرجل والمرأة في أسمى معانيها: فهما متساويان بكل ما للكلمة من معنى، لا فرق بينهما إلَّا في الدور الذي يلعبه كل منهما في العلاقة الزوجية حيث تتحقق هذه الشراكة. عندها يصير حب الرجل لزوجته دافعًا صادقًا لخضوع الزوجة. وعندئذ لا يقدر الزوج أن يُطالب الزوجة بالخضوع ما لم يغدق عليها فائضًا من الحب تريد الزوجة حينها أن ترده خضوعًا وولاء.

كتاب لا بدَّ لكل قارئ نبيه أن يقرأه. أسلوبه سهل ممتنع، أكاديمي لكنه بسيط، دروسه عميقة تحثنا على فحص الذات بصدق وشفافية. هنيئًا لعالمنا العربي بكاتبة على هذا المستوى من الرقي والوضوح في الرؤية والهدف.

بيروت في عيد القيامة ٢٠١٦

القس شارل قسطه

قاض في المحكمة الروحية الاستئنافية الإنجيلية

الفصل الأوَّل

مفعول به ناقص

مذكِّرات ديمة

أخلدتُ إلى النوم في تلك الليلة وأنا أناجي إلهي في بكاء صامت، وأعانق وسادتي المبلَّلة بالدموع "يا ربُّ لماذا خلقتني بنتًا لا ولدًا؟ ألا ترى كربي ومعاناتي في المنزل؟ إلى متى سأوجِّه إليك السؤال ذاته مرَّة تلو الأخرى كلَّما شُنَّت الحرب عليَّ؟ أرحني يا ربُّ من هذا الظلم، يا ربُّ".

في اليوم التالي استفقتُ على صوت أمِّي تناديني من صالة المنزل "هيَّا استيقظي! قومي أعدِّي لنا الفطور ورتِّبي غرفة أخيك كريم، ولا تنسي أنَّ اليوم هو يوم الغسيل وأنتِ تعرفين ماذا يعني ذلك"، ابتسمتُ بسخرية ونظرتُ حولي لأتحقَّقَ بأنِّي ما زلتُ في المنزل ذاته ولي الأهل ذاتهم وصوت أمِّي لم يتغيَّر. "حسنًا يجب أن أنفِّذ طلباتها بسرعة لئلَّا تبدأ بالصراخ".

كانت امتحاناتي الثانويَّة على وشك أن تبدأ، بينما كان أخي كريم يستعدُّ لامتحاناته الجامعيَّة، وكان كلُّ ما يجول في خاطري هو كيف يستهين والداي بامتحاناتي غير مبالين بمصيري العلميِّ، "ألهذا الحدِّ يفوقني أخي كريم أهمِّيَّة؟"

رجَوتُ أمِّي أن تعفيني من طلباتها المستعجلة لخدمة أخي، والتي دائمًا ما برَّرتْها بانشغالها بالطبخ وخدمة أبي. دون شكّ، هل سيكون الأمر غير ذلك؟ إنَّ لها مصيرًا واحدًا وعملًا واحدًا، حالها حال بقيَّة النساء: المنزل.

لم أستطع التركيز في أثناء دراستي بسبب مقاطعة أمِّي المستمرَّة لي، ماذا تريد منِّي؟ ليتها تتوقَّف عن طلباتها المقيتة وتدعني أدرس، وبدا لي أنِّي كلَّما تذمَّرتُ تُسارِع بإطلاق عبارتها المشهورة والتي، على حدِّ ظنِّها، تعزِّز معنويَّاتي، غير أنَّها لم تدرك يومًا أنَّ لها من الأثر ما يهيج بحرًا ليصيرَ صاخبًا في لحظات:

"لن تُخفقي فأنتِ ذكيَّة ومجتهدة، ونحن لا نريد سوى علامة النجاح".

إنَّها تهزأ بي بتلك الكلمات، كيف لها أن تقتل أحلامي كلَّ يوم؟ لا يا أمِّي أرجوكِ ألَّا تغتالي حلمي أن أصبح طبيبة. يا إلهي قل لها ذلك، قل لها أن تكفَّ عنِّي وأن تعاملني أسوة بكريم "البطل".

وما إنِ انتهيتُ من صراعي مع أفكاري وأسئلتي التي ينطق الصمت فيها صرخة الألم، حتَّى دخلتْ غرفتي وجلستْ على سريري، فزعتُ حينها لأنِّي اعتقدتُ أنَّها ستطلب منِّي المساعدة في المنزل مرَّة أخرى، ولكنَّها نظرت إليَّ وقالت:

"توقَّفي عن إلحاحكِ الدائم بشأن إنهاء دراستك الجامعيَّة. لقد قلتُ لك مِرارًا إنَّنا لا نستطيع تأمين تكاليف الجامعة سوى لأخيكِ كريم ، وأنت تعلمين أنَّ مصيرك في النهاية هو الزواج والمنزل".

أدخلتني كلماتها في دوَّامة من الاضطراب، فوالداي يتطلَّعان إلى مجرَّد تحصيلي علامة النجاح، بينما أسعى أنا إلى أعلى العلامات لألتحقَ بكلِّيَّة الطبّ، وهما يقرِّران مصيري في المنزل والزواج فقط، فيا له من تصغير وتحقير بل تهشيم لأجمل أحلامي!

كان ذلك اليوم مشؤومًا لي. ماذا سيحلُّ بي؟ لم أستطع السيطرة على دموعي ولم أستطعْ أن أوقفَ عقلي عن التفكير؛ فهذه حقيقة وليست وهمًا وكأنَّها جمرة نار لا تنطفئ، تشعل قلبي بالغبن والخوف من الغد.

جلستُ بكلِّ انكسار ولكنَّ في قلبي إصرارًا على حفظ كُتبي غيبًا بُغية تحقيق مُرادي.

وأخيرًا انتهيتُ من الامتحانات واستبشرتُ خيرًا أنِّي سأحصل على علامات مشرِّفة، غير أنِّي كنتُ أجهل الأخبار التي حملها والدي معه. ها هو أبي ذلك الرجل الشرقيُّ المعتَزُّ يدخل البيت متهلِّلًا يُبشِّر أمِّي بأسرٍّ الأخبار. لقد طلب صديقه سالم أخيرًا يدَ ابنته ديمة لابنه عدنان، انطلقتْ زغاريد أمِّي المؤيِّدة مشاركةً إيَّاه فرحتَه وناشرةً أريجَها في المنزل. وما إنِ انتهتْ حتَّى شرعتْ تسأله عن التفاصيل، وكيف ردَّ على طلب سالم، سمعتُها تسأل أبي عمَّا سيقولُه لديمة؟ فخرجتْ كلماته غاية في السهولة: "وعدتُه بالمباشرة بموضوع الخِطبة بعد أن تُنهي ديمة امتحاناتها". كانت فرحتهما عنوانَ رحلة العذاب التي تنتظرني.

نزلتْ كلمات أبي الحافلة بالعزِّ والفخر على صدري أشبَهَ بصخرةٍ هائلةٍ لا أستطيع زحزحتها. وخيَّم الصمتُ لحظاتٍ لم يقطعه إلَّا صوت أمِّي: "لقد هيَّئتُها لفكرة الزواج ولكنَّها تأمل في إكمال تعليمها". لم يُطِل والدي مشوار التفكير أكثر من لحظات، ليردَّ عليها بما يمثِّل فكر الأغلبيَّة الساحقة في مجتمعاتنا الشرقيَّة، ويُعبِّر عنه بكلمات سهلةِ القول ولكنَّها مصيريَّة الأثر ضاربة كالإزميل في قلبٍ تحوَّل صخرًا، وخُتِم بالشمع الأحمر: "أيُّ تعليم هذا؟ المبلغ الذي ادَّخرتُه مخصَّص لتعليم كريم فقط، ولا مجالَ للنقاش في هذا الموضوع. ستتزوَّج شاءت أم أبت".

اغتيلَتْ أحلامي إلى الأبد، وحُكم على مصيري بالإعدام لتشهدَ مذكِّراتي الظلم الذي وقعَ عليَّ.

مدخل

إذا أبحرنا في إنجازات المرأة في الوطن العربيّ، نجد أنَّ هناك في كلِّ دولة نساءً خضنَ عِباب بحر الجهل وتلاطُم أمواج القمع إلى أن وصلنَ إلى ميناء النجاح في كلِّ ميادين العمل والسياسة والفنِّ والتعليم والقانون والطبِّ والأمن وغير ذلك. لقد أطلقت هؤلاء النساء العِنان لملكات أذهانهنَّ وقدراتهنَّ ومهاراتهنَّ لتحقيق التغيير، وتحدَّينَ الصعاب ونجحن في إرسال قوارب ملآنة بالفرص والموارد لنساء أخريات، بل نجد حتَّى في الدول التي تعاني الحروبَ والنزوحَ والتهجيرَ نساء أصررن على النجاح وتخطِّي العواصف والعراقيل التي واجهتهنَّ من التقاليد والظلم والتعسُّف.

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول

هذه هي حال المرأة العربيَّة في القرن الحادي والعشرين؛ إذ تعطي كلَّ ما يبثُّ الحياة في ما حولها ولا تنالُ إلَّا النزرَ اليسير، حيث تضجُّ الحياة العربية بكلِّ ما يمكن أن يوضع في خانة اضطهاد المرأة، ولا نكاد نجد بيتًا عربيًّا تقيم امرأة بين سكانه إلَّا ونجدها تعاني مشكلةً ما تصبُّ في تلك الخانة القاتمة المقيتة. ولا نبالغ إذا قلنا إنَّه ما من امرأة عربيَّة لم تتعرَّض لحالة أو أخرى من حالات الاضطهاد ضدَّها، فهذه تعاني التمييز بينها وبين شقيقها لأنَّه ذكر، وتلك تعاني مشكلة الخوف عليها فتُحرم حتَّى الخروجَ من باب البيت، وثالثة طلَّقها زوجها فوجدتْ نفسها ملقاة في

الشارع، تعيش على هامش الحياة في انتظار زوج آخر يتكفَّل بها، ورابعة تعاني تحرُّشًا في وظيفتها أو تمييزًا في معاملة مديرها لها.

وهكذا يكتشف كلُّ مَن يبحث في أوساط النساء العربيَّات- من أوَّل جولة له- كيف أنَّ ما يسيطر على المجتمع العربيِّ هو تلك الثقافة التي تصنِّف المرأة في المرتبة الأدنى مقارنة بشقيقها كونه رجلًا، وهو يملك كلَّ شيء، بما في ذلك حقَّه في وضع الأنظمة والقوانين التي تضمن بقاءه في سدَّة التحكُّم، وتدفع بالمرأة إلى مرتبتها الدونيَّة، فنجد المرأة اليوم ضحيَّة تُستباح حقوقُها، وتُسجَن في بيتها، وتهمَّش وتُهمَل، وتَخضَعُ لوصاية الرجل، وتُمنع من الكلام عن نفسها، ويُقضى في شؤونها وهي غائبة. فهل هذا هو واقع المرأة فعلًا أم أنَّها تدير الأمور كأنَّها الرئيس بينما يَظهَر أنَّها مظلومة؟

سنحاول هنا أن ننفض الغبار عن مقولات وقناعات سائدة، وهي ما يجعل مكانة المرأة في المجتمع العربيِّ محصورةً في فكر الرجل، أو الإعلام أو القوانين، إذ نجد مثلًا بعض الدول العربيَّة تنحاز إلى حقوق المرأة وتنادي بها، لكنَّها لا تطبِّق ذلك في قوانينها. ومن الأمثلة الأخرى، الإعلام الذي يعمل على ترسيخ المفاهيم القائمة عن المرأة، ويتجاهل الخطوات الرائدة نحو مساواة المرأة بالرجل، وهناك أيضًا القناعة السائدة في فكر الرجل سواء مَن يُصدر القرارات أم مَن ينفذها من الشعب: أنَّ المرأة كائن ضعيفٌ وغير كامل، وشريك غير مساوٍ للرجل.

من القناعات السائدة أيضًا مسؤوليَّة المرأة عن تحديد نوع الجنين متجاهلين ما ينادي به العلم أنَّ الرجل هو المسؤول وليس هي، وقد جعلَ هذا كلَّه المرأة تعيش في حالة خوف من ذاتها، وصارتْ هناك لدى كلِّ امرأةٍ قناعة راسخة ممَّا يُفقدها الثقة بنفسها، أوَّلًا، ويؤدِّي بها إلى التخلِّي عن حقِّها في العيش الكريم، والتعليم

والعمل والارتقاء نحو الأعلى. من هنا أستطيع القول إنَّ القناعات الراسخة جعلت مواطَنةَ المرأة منقوصةً.

لننظر إلى قصَّة ديمة معًا. كم مرَّة تتكرَّر قصَّتها في مجتمعنا؟ فمع كلِّ التطوُّر في بنية المجتمع العربيِّ والمستوى المعيشيِّ للأُسر، فإنَّ فكرة ارتباط المرأة بالمنزل والأمومة لم تتطوَّر، ولم تأخذ شكلًا جديدًا يناسب متطلَّبات العصر. فبينما رأت ديمة أنَّ تعليمها حقٌّ مسلوبٌ وأصرَّت في داخلها على النجاح والاستمرار، فُرض عليها الزواج لتصيرَ أمًّا لثلاث بنات، وبعدها أرملة في سنِّ الثامنة والعشرين؛ إذ أُصيبَ زَوجُها بأزمةٍ قلبيَّة في أثناء العمل، ولم يتمكَّن أحد من إسعافه. وها إنَّ ديمة تعيشُ اليومَ على الراتب المتواضع الذي تتسلَّمُه من الضمان الاجتماعيّ.

ملامح الأنوثة في المجتمع العربيّ

أ. الضعف

ترتبط صورة المرأة في الثقافة العربيَّة بالضعف والحاجة إلى السند والحامي. وتتعلَّق هذه الصورة بطبيعة الحياة التي عاشها العرب قديمًا والقائمة على مفاهيم الفروسيَّة والغزو، إذ ارتبطت المرأة لديهم بمفهوم العِرض والشرف، فغدا من الضرورة حجب هذا الكائن والدفاع عنه في وجه الطامعين، وهي صورة مستمدَّة من كون المرأة في المجتمع الذكوريِّ أشبه ما تكون بجزء من ممتلكات الرجل، وقد حُرمت الفرصة لتطوير قدراتها المتنوِّعة والمشاركة في مناحي الحياة المختلفة، واقتصرت حياتها على جعل حياة الرجل ممتعة وسهلة من جهة، ومدِّه بالأبناء الذكور الذين يسيرون على طريقه من جهة أخرى.

ولا تغيب عن بالنا تلك القصص لنساء تفوَّقنَ من حين إلى آخر في مجال من المجالات التي يقدِّرها المجتمع تقديرًا عاليًا، وذلك لأنَّهنَّ حَظين بفرصة أفضل من سواهنَّ، وبمساحة أكبر من الحرِّيَّة، فظهرت قدراتهنَّ الحقيقيَّة، وكونهنَّ كائنات لا تنقصهنَّ الشجاعة والفصاحة والحكمة والقدرة.

والسؤال هنا: ما مقياس القوَّة والضعف لدى المرأة؟ وهل هي ضعيفة فعلًا أم أنَّها محرومة أن تُعبِّرَ عن ذاتها؟

إن الذكر والأنثى وجهان متكافئان متكاملان لعملة واحدة في المجتمع الإنسانيّ. ورغم أنَّ هناك العديدَ من الفروقَ بينهما من بيولوجيَّة واجتماعيَّة (ولا يمكن تغيير الفروق البيولوجيَّة)، فإنَّ الفروقَ الاجتماعيَّة تكوَّنتْ نتيجة الثقافة التي أنشأها الرجل فارضًا بها مفاهيمه وثقافته الذكوريَّة الخاصَّة. فقد كان الرجال يتنافسون فيما بينهم ويتصارعون للظفر والزواج بالنساء، وهم مَن كانوا يقاتلون ويشاركون في الحروب والصراعات والقتال، بعكس النساء اللواتي كنَّ غالبا ما يحذَّرن من الوقوع أو المشاركة في مثل تلك الصراعات، فكانت قوَّتهنَّ تكمن في استخدامهنَّ الحيلة واللطف مع الرجل للحصول على ما يُرِدْن، وتبقى المرأة هي الأكثر محافظة اجتماعيًّا وغريزيًّا، وهي الأكثر تحمُّلًا لأعباء الحياة وتحدِّياتها وصعوباتها. وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ تلك الفروقَ ما بين الرجل والمرأة تظهر جليًّا عندما تصيرُ المرأة أمًّا حيث تظهر غريزة الأمومة واضحة؛ فالمرأة التي تمنح الحياة تدرك قيمتها وأهميَّة المحافظة عليها فتبدأ تنثر مشاعرها الجيَّاشة لحماية المجتمع الإنسانيِّ من وحشيَّته وجبروته؛ فلَو تُرك للمجتمع المجال، لقَضى على النوع الإنسانيِّ في غضون عقود قليلة من الزمن.

تُعدُّ سيطرة الذكر ظاهرة غريبة من نوعها وذات عواقب وخيمة وخطيرة على كلٍّ من المرأة والرجل، إذ تشلُّ المجتمع كلَّه، لكنَّها أصبحت مألوفة، بل أيضًا

جزءًا من الثقافة لدى الكثير من الرجال. وليس ذلك فحسب، بل نجدهم يتباهون بتلك السيطرة أمام أقرانهم، وقد يتنافسون بعضهم مع بعض بشأن مَن يمسك البيت بقبضة حديديَّة، ومَن الأقوى والأقدر على السيطرة والتحكُّم في أمور الحياة الخاصَّة بالمرأة لمدَّة أطول، وبأساليب مختلفة منذ نشأة تلك المرأة "طفلة" إلى أن تصير شابَّة وزوجة. بل يصل الأمر إلى حدِّ سلوكيَّات مهينة ومُذلَّة للمرأة، وتتفاقم المشكلة حين يبارك المجتمع هذه السلوكيَّات وتجد لها في القانون نصيرًا وسندًا، علمًا أنَّ الرجال في مجتمعات عديدة تخلَّصوا- بدرجة كبيرة- من عقدة الرغبة في السيطرة على المرأة وإخضاعها، فلماذا يحتاج الرجل "العربيُّ" إلى توظيف أدوات السيطرة كلِّها إنْ كان يواجه كائنًا ضعيفًا كالمرأة؟ وهل المرأة ضعيفة جسديًّا حقًّا؟

إنَّ ما تقود إليه الدراسات حول قدرات المرأة بتكوينها الفسيولوجيِّ والعاطفيِّ هو أنَّها تكاد تكون الكائنَ الأصلبَ على وجه الأرض، والأكثر قدرة على التحمُّل والتعاطف والعطاء، وفي الوقت ذاته هي الألينَ والأقدَرُ على تفهُّم المشاعر المتضاربة. ويبرز هنا السؤال: لماذا إذًا تعرَّضتِ المرأة على مرِّ العصور إلى كلِّ تلك الضربات والصدمات؟ وأين هي صلابتها؟ وبمعنى آخر، كيف يصيرُ القويُّ هو الأضعف؟ وقد يكون السؤال المؤلم الآن، إنْ كانت المرأة هي الأقوى والأكثر قدرة على التحمُّل، فكيف صارَ الرجل هو المسيطر؟ وأين تقفُ النساء من هذا كلِّه؟ كيف صار مَن يتربَّى على يد المرأة هو الأقدر على التحكُّم فيها؟ وكيف استطاع التاريخ وعلى مرِّ الأزمان أن يرسم تلك الصورة الضعيفة الهشَّة والمكسورة عن المرأة؟

ب. التبعيَّة

ترتبط هذه الصفة بالصفة السابقة مباشرة؛ فإن كانت المرأة في عُرف المجتمع ضعيفة

وبحاجة إلى الرعاية والحماية على الدوام، فلن تستطيع الاعتماد على نفسها وإدارة شؤونها، ولن تحسنَ التصرُّف وحدها، ومن ثمَّ لا يمكنها أن تحظى بالاستقلاليَّة، وستكون دائمًا بحاجة إلى مَن يتولَّى مسؤوليَّتها. وفي هذا المقام، يروِّج المجتمع هذه الأفكار بمقولاتٍ من قبيل: "ظلّ راجل ولا ظلّ حيطة" من منطلق أنَّه مهما صغر شأن الرجل يظلُّ وجوده أفضل من عدمه.

إنَّ المفاهيم التي تسيطر على مجتمعاتنا تجعل الرجل مسؤولًا مباشرًا عن العائلة، وتجعل مظلَّته ضروريَّة للمرأة متَّخذةً صفة الستر والحماية. وهكذا أُلحِقتِ المرأة بالرجل وعلى مرِّ السنين، ولم يُسمح لها بالتعبير عن رأيها في الأمور المصيريَّة فكانت متلقِّيةً أكثر منها فاعلة، وتقلَّصت خبراتها داخل حدود البيت إذ مُنعتْ من المشاركة في الحياة العامَّة، وربَّما لو أعطيت العديد من النساء الآن الحرِّيَّة في اختيار طريقهنَّ لما غيَّرن في حياتهنَّ شيئًا؛ لأنَّهنَّ لا يمتلكن الأدوات والمصادر لذلك لا يعرفن من مجالات الحياة إلَّا ما أُتيح لهنَّ، فما الذي سيفعلنَه وقد اعتَدنَ أن يكنَّ تابعات، فالمرأة في مجتمعنا إمَّا ابنة فلان وإمَّا زوجته أو أمُّه.

ج. مواطنة من الدرجة الثانية

منذ بدء العصر الذكوريِّ صارت المرأة فردًا ثانويًّا وكائنًا من الدرجة الثانية، فقد استفرد الرجل بالمهامِّ الاقتصاديَّة والسياسيَّة والاجتماعيَّة، وترك للمرأة الشؤون البيتيَّة تحت سلطته وما يرغب فيه.

لقد حَظِيَتِ المرأة بشيء من التعليم، وحصلت على وظائف بنسب متزايدة في بلادنا العربيَّة، ولكنَّ هذا حدث نتيجة إلحاح الحاجة وليس لتغيُّر المفاهيم؛ إذ لا تزال الأفكار عن كَونِ تعليمها أو عملها من الكماليَّات أفكارًا رائجة وشائعة بين

الناس. وما أسرع ما تُشجَّع على ترك التعليم أو العمل متى لاحت فرصة للزواج. فهل مجرَّد نَيلها قسطًا من التعليم والعمل هو أمرٌ كافٍ إنْ لم تتغيَّر ذهنيَّة المجتمع الذي ما زال يرى فيها إنسانًا تابعًا ومن الدرجة الثانية؟ وهل تلقى المعاملة الندِّيَّة في العمل؟ وهل حصلت المرأة العاملة فعلًا على استقلالها الاقتصاديِّ الذي هو أساس كلِّ استقلاليَّة أخرى في المجتمع؟

ليست المكانة المتدنِّية للمرأة على المستوى الاجتماعي فقط، بل أيضًا على المستويات السياسيَّة والقانونيَّة والاقتصاديَّة. لكن يتمحور تركيزنا في هذا الكتاب على مكانة المرأة الاجتماعيَّة من حيث دورها في المنزل كما رأيناه في أمٍّ كريم وديمة الذي ينحصر في خدمة زوجها ومهامِّها المنزليَّة. وفي رأيي أنَّ رحلة النضال التي تخوضها المرأة في سعيها نحو تغيير مكانتها في المجتمع لهي رحلة طويلة شاقَّة وغير مضمونة، فما نراه اليوم ومنذ بداية "الربيع العربيِّ" وتشكيل ما يُعرَف بالدولة الإسلاميَّة "داعش"، فضلًا عمَّا هو مطبَّق من قِبَل الحكومات وممارَس من الأفراد قد عمل كلُّه على إجهاض أيَّة عمليَّةِ تغييرٍ ممكنة، لا بل عمل على إرجاع المرأة إلى الوراء، ولا سيَّما في الدول التي يحكمها الفكر الأيديولوجيُّ الذي لا يؤمن بالتغيير والاختلاف، فهناك عادت المرأة إلى بداية الطريق.

أساءَتِ الأفكارُ السائدةُ والقَبَليَّة إلى المرأة فسيطر الرجل عليها وحسبها من متاعه، وبالأحرى حسبَ الرجل أنَّ أملاكَه تشمل المواشيَ والطيور والأثاث والنساء، وهكذا نرى أنَّها لم تأخذ مكانتها الصحيحة في المجتمعات قاطبةً، ولم تُمنح حرِّيَّة الاختيار في كلِّ شؤون حياتها بما فيها الزواج، لا سيَّما الزواج الذي يتمُّ لأهداف سياسيَّة واقتصاديَّة واجتماعيَّة.

سيبقى مصطلح مواطِنة من الدرجة الثانية رفيقَ درب، ما لم تكن هناك إرادة سياسيَّة من الحكومات بمختلف نُظُمها، تعقدُ التصميم الجادَّ على إعادة تشكيل ثقافة المجتمع ولغته بوضع الاستراتيجيَّات والخطط لتمكين المرأة وتغيير الصورة النمطيَّة عنها، بحيث لا تكونُ هذه الكلمات مجرَّد حبرٍ على ورق يجري تناقُلها حول العالم.

د. الخوف من الأنثى

بمقدار ما سلب المجتمع الذكوريُّ المرأة حقوقها التي كانت تتمتَّع بها، فرض عليها كمًّا من القيود والمحرَّمات لئلَّا تحاول استرجاع ما سُلب منها، فقد يجد هذا الكائن المغلوب على أمره القوَّة لينهضَ بنفسه من جديد. ومن هنا رُسمت عن المرأة تلك الصورة النمطيَّة المشوَّهة التي يحفرها المجتمع في ذاكرة الجماعة، مؤكِّدًا ضرورة بقاء هذا الكائن تحت السيطرة دون إعطائه الثقة الكاملة. وتعكس العديد من الأمثال والقصص الشعبيَّة هذه الصورة التي تنتقل جيلًا بعد جيل، راسمةً ملامحَ امرأة تتبع شهواتها بلا رادع اجتماعيٍّ أو ذاتيٍّ من أخلاق أو قيم، مُصدرةً قراراتها عن عاطفة عمياء دون إعمالٍ للفكر، إذ يكون سلاحُها الكَيد والدموع، ممَّا يؤدِّي إلى جلب الفِتنة والاضطراب، ما شابه.

وفي هذا الإطار، يمكننا أن نجد العديد من انعكاسات هذه الصورة في الأدب والأمثال الشعبيَّة، فالمحور الذي تقوم عليه حكايات "ألف ليلة وليلة" مثلًا هو غدر المرأة المتأصِّل: "وفي شيمتها الغدر"، كذلك في الخطاب الدينيِّ الذي يؤكِّد أنَّ أكثر أهل النار من النساء. وبسبب تقدُّم التكنولوجيا، نجد تلك الفتاوى محمَّلة على أجهزة الهاتف والحاسوب ويمكن الوصول إليها بسهولة بواسطة مواقع التواصل الاجتماعيِّ، ممَّا يتيح الفرصة لمشاهدتها من قبل النساء والرجال. وهنا

يبدأ الخطر في الازدياد؛ لأنَّ فتاوى مثل تلك تعزِّز نظرة الرجل السلبيَّة عن المرأة، وتزيد احتراسَه من جهة امرأته.

كذلك نقرأ في الأمثال الشعبيَّة : "حِيَل النسوان غلبت حِيَل الشيطان"، و"اسمع للمرَة ولا توخذ برايها"، و"حكي ثنتين خرب بيتين"، و"إن ماتت أختك انستر عرضك"، و"موت البنات من المكرَّمات"، و"همّ البنات للمَمات"، و"إم الولد بخير، وإم البنت بويل"...إلخ.

وتؤكِّد هذه الصورة أنْ لا مكان للمرأة إلَّا بيتُها ومطبخها: "المرأة لو وصلت المرِّيخ مصيرها للطَّبيخ"، فشهادة المرأة مطبخها.

إنَّنا نقف أمام أزمة عملَتْ على تشويه صورة المرأة في تكوينها وكَينونتها بوصفها "مخلوقًا مميَّزًا" يتكامل مع الرجل في إعمار الأرض وجعلها جنَّة الإنسان، فقد اخترقت تلك الصورةُ المشوَّهة الفكر العربيَّ الذكوريّ، وحكمت على النصف الأنثويِّ بالإعدام الاجتماعيِّ الجماعيِّ، ولم يأبه المجتمعُ بتصويب مواقفه واستنارة فكره، وبقي الحكم على المرأة أنَّها ناقصةُ عقلٍ ودين، ومخلوقٌ لا يمكن السيطرة على شهوته لذا لزم تقييدها لئلَّا تهين شرفَ العائلة الكريمة.

هـ. تمييز الذكر عن الأنثى

لقد أنجبت أمِّي أربع بنات واحدة تلو الأخرى، وكانت تأملُ في كلِّ مرَّة أن يولَدَ ذكرٌ يحمل اسم العائلة ويحمي ثروَتَها، وأخيرًا أنجبتْ أخي الصغير؛ فكان المدلَّل الذي يجب ألَّا يُرفض له أيُّ طلب، ولم تُستَثنَ أمِّي من بقيَّة النساء اللواتي مارسْنَ التمييزَ بين بناتهنَّ وأبنائهنَّ.

إنَّه واقع يحدث في مجتمعاتنا وعائلاتنا القريبة والبعيدة، حيث تُعامَل الفتاة

أو الجنس الأنثويُّ معاملةَ "الشيء" المذموم وغير المقبول مجتمعيًّا، ويُعيدنا مجرَّد الإحساس بشعور غير إيجابيٍّ تُجاه المولود الأنثى إلى تلك الحقبة الزمنيَّة للقبائل العربيَّة حيث "إذا بُشِّر أحدهم بالأنثى ظلَّ وجهه على اسوِداد وهو كظيم"، وهو موروث ثقافيٌّ جاء منذ العصور الأولى من النشوء العربيّ.

ويمتدُّ هذا التمييز ليَطالَ كلَّ مراحل حياة المرأة، وهو نمط اجتماعيٌّ سائد، وقد كان تزويجها في سنٍّ باكرةٍ أمرًا شائعًا حتَّى اليوم في بلاد كاليمن والريف المصريِّ والمناطق المهمَّشة وريف سوريا، والخليج العربيِّ من كلِّ الوطن العربيِّ حيث تقلُّ نسبة التعليم وتزداد الأعباء الاقتصاديَّة. وقد بيَّنت دراسة أكاديميَّة يمنيَّة عام ٢٠٠٨م أنَّ ٥٢٪ من الفتيات اليمنيَّات تزوَّجن دون سنِّ الخامسة عشرة، وفي مقابل ذلك ٧٪ من الذكور تزوَّجوا دون هذه السنّ. وترتفع نسبة الأمِّيَّة بين المتزوِّجات القاصرات إلى أكثر من ٤٣٪. ومن الأمثلة على ذلك الخبر الذي انتشر على مواقع التواصل الاجتماعيِّ ووسائل الإعلام المحلِّيَّة يوم تُوُفِّيت طفلةٌ يمنيَّة في الثامنة من عمرها تدعى روان متأثِّرة بجراح عميقة في ليلة زفافها حيث تزوَّجها رجل في الأربعين من عمره، دفعته غريزته الجنسيَّة إلى الزواج بهذه الطفلة. وأكَّد التحليل الطبِّيُّ أنَّها لقيت حتفها متأثِّرة بجروح عميقة، وتمزُّق في الرحم والأعضاء التناسليَّة، أمَّا أمُّ الطفلة فقالت إنَّ طفلتَها لا تعي ما يعنيه الزَّواج.

وفي إطار العمل، فيتمثَّل التمييز في إعطاء المرأة أجورًا أقلَّ مقابل العمل ذاته الذي يشغلُه الرجل في قطاعات واسعة. أمَّا بعد الزواج فيستمرُّ التمييز في تسليم الدفَّة إلى الرجل ولعبِ دَورِ التابع، وقد تُحرم المرأة العملَ إنْ كان زوجها مقتدرًا ماديًّا، وتُلغى أيَّة حياة خاصَّة بها أو أيَّة اهتمامات لها، وتصير حياتُها مكرَّسة بالكامل لتَسهيل حياة الرجل (زوجها)، وغالبًا ما تعيد هذه العائلة إنتاج عائلة أخرى مشابهة

تكرِّس القِيَم نفسها، وتربِّي أولادها عليها. وفي حال حدوث خلافات بين الزوجَين فإنَّ القوانين نفسها لا تُنصِفُ الزوجة، بل غالبًا ما تضمن للرجل إبقاء السيطرة وإذلال المرأة بشروط تجبرها على العودة إليه صاغرةً في معظم الأحيان.

يمكننا أن نلاحظ آثار التمييز ابتداءً بالأمثال الشعبيَّة المتغلغلة في الوجدان، ومرورًا بعناء نساء يحاولن إنجاب "الذكر" لرجل لا يقنع بإنجابه أربع أو خمس إناث، فتظلُّ المرأة ملاحَقة بهذا العار، ويظلُّ الرجل يحاول إثبات فحولته. وقد يتزوَّج بأخرياتٍ لهذا الغرض، مع علمه أنَّ مَن يحدِّد جنسَ المولود هو الرجل لا المرأة! ولا ينتهي التمييز حين نلاحظ غياب المرأة أو ندرة وجودها في أماكن صناعة القرار والمناصب الأكثر تأثيرًا في كلِّ مناحي الحياة. والغريب هنا هو أنَّ الرجل الذي يمتهن المرأة في حياته اليوميَّة بقصد أو دون وعي؛ ويدافع عن بقاء قوانين وأعراف ظالمة، هو ذاته أنجبته وربَّته امرأة. وقد يتفاخر بأمِّه بين حين وآخر حاسبًا إيَّاها مختلفة عن باقي نساء الأرض!

الأنوثة العربيَّة في العصر الحديث

أ. إنجازات أم إخفاقات؟

يبدو لي أنَّ مسلسلَ عدم إنصاف المرأة لا ينتهي. فمع أنَّ مَشاهدَه تختلفُ من عصر إلى آخر، فإنَّ الرواية مستمرَّة لا تتغيَّر. ومع أنَّ المرأة هي البطلة في كلِّ عصر، فإنَّها للأسف لا تجدُ مَن يصفِّق لها، لا بل تُقابَل بالصفع والظلم والقمع والإجحاف بحقِّها.

لقد عمل الرجل عبر القرون على قَمْع المرأة وتقليص دَورها، واستَعبَدَها هي والأطفال المستَضعَفين، ولم يختلف واقع المرأة في الوطن العربيِّ اليوم كثيرًا عن وضعها في القرن العشرين، ولم تختلف أحوالها التي تعيشها في الوطن العربيِّ

عن غيرها في السابق. وأنا أجد أنَّ وضْعَ المرأة في الألفيَّة الثالثة ازداد سوءًا على المستوى الاجتماعيِّ والاقتصاديِّ والسياسيِّ والثقافي. فكيف ذلك؟

إنَّ هناك الكثير من المحاولات المكثَّفة التي تقودُها الحكومات العربيَّة للنهوض بالمرأة وإعطائها الفرص لتَفعيل دورها في المجالَين العامِّ (في المجتمع) والخاصِّ (في الأسرة). فمثلًا، دُشِّن في عام ٢٠١٣م أوَّل مكتب محاماة لأربع نساء كخطوة تعدُّ الأولى من نوعها في المملكة العربيَّة السعوديَّة بعد جدل طويل حول مزاولة المرأة لمهنة المحاماة، إلَّا أنَّهنَّ حصلْنَ على رخصة مزاولة المهنة من وزارة العدل، ففي الأعوام الثلاثة الماضية زاد عدد النساء العاملات في السعوديَّة ثلاثة أضعاف في المجال القانونيّ.

غير أنَّ هذه المحاوَلات لم تَرتَقِ بعد لتُعيدَ النظرَ في الفكر الذكوريِّ بجملته، وفي توجُّهات التربية والقوانين وفرص التعليم والعمل، فلا تزال محدودةَ النطاق ولا تعالج المشكلة من جذورها، لذا فإنَّ الأمور ظلَّتْ عند حالها على المستوى الأبعد قليلًا من السطح الظاهر للعِيان.

قد يكون هناك اختلاف بين المرأة الخليجيَّة والمرأة حول حوض البحر المتوسِّط من الناحية الاقتصاديَّة؛ إذ تتمتَّع الأولى بوفرة اقتصاديَّة أكثر من الأخيرة، غير أنَّ الحالة الاجتماعيَّة تتشابه في كثير من الجوانب، ولا سيَّما ما يتعلَّق بقوانين الطلاق والزواج والميراث والانتخاب. حيث تفوَّقتْ بعض الدول العربيَّة على غيرها بإعطاء المرأة المقترنة بأجنبيّ- بصرف النظر عن جنسيَّته- الحقَّ في منح جنسيَّتها لأبنائها، وهذه الدول هي تونس والمغرب والجزائر وليبيا واليمن والإمارات والعراق، كما نالت المرأة الأردنيَّة بعض الامتيازات الخدميَّة بعد سنوات من النضال لنَيل حتَّى هذا الحدَّ الأدنى المقبول من الحقوق.

وليست هناك أيَّة ذرائع من وراء حرمان الأم أن تعطيَ جنسيَّتها لأبنائها سوى واقع التمييز ضدَّ المرأة، فأيُّ مواطَنَة تلك التي تُنحِّي المرأةَ جانبًا وتضعُ كلَّ الحلول وتجيز كلَّ الاستثناءات وتسنُّ القوانين لمصلحة الرجل؟ ويُذكَر في هذا السِّياق أيضًا أنَّ عدم منح المرأة الجنسيَّة لأبنائها لا يقتصر فقط على الزواج، بل أيضًا إذا وقعَ الطلاق وهو الطامَّة الكبرى؛ إذ يعني هذا إلغاءَ أمومتها كلِّيًّا ممَّا يجعل المرأةَ في دوَّامة لا حدود لها ولا حلول.

لقد سئمتِ المرأة من هذا الاعتراف الذي يظلُّ مجرَّد أمنيات ورغبات؛ فهي تنتظر التغيير على أرض الواقع في القوانين المجحِفة بحقِّها وبحقِّ مواطَنَتها. ونحن النساء نميل كثيرًا إلى إلقاء اللوم على الآخرين وتحميلهم مسؤوليَّة عثراتنا حاسبين إيَّاهم هذا الحجر الذي عثرتْ به أقدامنا، ونلقي بذلك الذَّنب العظيم على أكتافهم، إذ لم يفهمونا ولم يقدِّروا تلك اللحظات العصيبة التي مررنا بها، بينما كان يفترض بنا أوَّلًا أن نفهمَ أنفسَنا، أو على الأقلّ، أن نكونَ على إدراك لما نمرُّ به، وهذا هو بالضبط المطبُّ الأوَّل الذي واجهَتْه المرأة العربيَّة منذ القديم إلى اليوم، لذا فإنَّ المسؤوليَّة الكبرى تقعُ على عاتقنا نحن دون غيرنا في النضال من أجل حقوقنا، وتغيير تفكير المجتمع، والسعي إلى الإنصاف في القوانين والفرص.

ب. حداثة مزيَّفة

قال أبيل إرمان: "لا يعني الاهتمام بثقافة المرأة خَلْقَ مسافةٍ أكبرَ ما بين الرجل والمرأة، بل يعني تقاسم الكعكة بالتَّساوي".

ومن هنا نفهم أنَّنا لا نريد نسخة ثانية من العملة ذاتها، بل الوجهة الأُخرى لتلك العملة. نحن لم نَعِ في أثناء سنوات انفتاحنا على العالم أنَّ المساواة والعدل

ما بين المرأة والرجل، هي أن يقومَ كلٌّ منهما بِدَوره الصحيح، وبالصورة الصحيحة التي تتناسب مع تكوينهما الفسيولوجيّ والنفسيّ، ولا يعني هذا أن نعطي لكلٍّ منهما دورًا ونمنعه عن الآخر، بل علينا أن نفهم أنَّ اختلاف الشكل الخارجيّ لا يعني بالضرورة اختلافًا من الداخل؛ فالمرأة اليوم قادرة على احتلال جميع المناصب والعمل في مختلف المجالات وعلى جميع الأصعدة وفي شتَّى الميادين، ولم يكن الوصول إلى هذا الوضع بالسهولة التي يعتقدها بعض الناس، بل ناضلَتِ المرأة كثيرًا حتَّى تصلَ إليه، وقد دفعَت نساء كثيرات حول العالم ثمن تلك المراحل التي ترجَّحَ فيها حال المرأة ما بين نقيضَين.

لقد ازدادت نسبة التعليم ما بين النساء في الوطن العربي، إذ تشير الإحصائيَّات إلى أنَّ نسبة المتعلِّمات تساوي نسبة المتعلِّمين إنْ لم تكن أعلى قليلًا، وظاهريًّا يعطي لنا هذا مؤشرًا إيجابيًّا عن تطوُّر الحياة، ويُطمئِن قلوبنا على مستقبل الأجيال المقبلة.

غير أنَّ الأمر المحيِّر هو أنَّه مع كلِّ هذه النسب المرتفعة؛ مع كلِّ المراتب العُليا التي وصلَتْ إليها المرأة العربيَّة اليوم، فإنَّنا لا نزال نعاني النظرةَ الدونيَّةَ ذاتها إلى المرأة، ولا نزال غير قادرين على التعامل معها إلَّا كَونَها أداةً أو إناءً محدودًا جدًّا، أو فلأقُلْها بصورة أخرى: إنَّنا ما زلنا نحتفظ بشيء من الحقبِ العربيَّة القديمة ربَّما كي يظلَّ الرجلُ هو القويَّ. وما يُحزنُ حقًّا هو أنَّ كثيرًا من الفتيات والنساء والعربيَّات ينظرنَ اليوم إلى مرآتها بالعَين الدونيَّة ذاتها.

مراجع الفصل الأوَّل

١. مجموعةٌ من الكتاب السوفييت، "في المادِّيَّة التاريخيَّة والماديَّة الديالكتيَّة"، ترجمة خيري الضامن، موسكو، دار التقدُّم- ١٩٧٥، ص٢٧٧.

٢. بكشتاتوفسكي وآخرون، "علم الأخلاق"، موسكو، دار التقدُّم- ١٩٩٠، ص٣١.

٣. فراس السوَّاح، "لغز عشتار"، الطبعة الثامنة، دار علاء الدين، دمشق-٢٠٠٢.

٤. سيمون دي بوفوار، "الجنس الآخر"، المكتبة الحديثة للطباعة والنشر، بيروت- ١٩٧٩.

٥. أوليدوف، "الوعي الاجتماعيُّ"، ترجمة بشير السباعيِّ دار ابن خلدون، بيروت-١٩٧٢، ص٢٨٧.

٦. محسن جاسم الموسويِّ، "مجتمع ألف ليلة وليلة".

٧. سحر خليفة، "مذكِّرات امرأة غير واقعيَّة"، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت-١٩٩٢م.

٨. عبد الغنيِّ سلامة، "أثر الربيع العربيِّ على المرأة العربيَّة"، الحوار المتمدِّن-العدد: ٣٦٧٧- ٢٠١٢/٣/٢٤م www.ahewar.org.

9. https://maktoob.helwa.yahoo.com/063923677-html

10. http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=177599